



الأرثوذكس من ٣٠ بالمئة إلى ٧٠-٧٥ بالمئة، مع بقاء عدد الذين يتقيدون بالطقوس الإيمانية عند معدل ه بالمئة. وهذا أقل بكثير من التدين الطقوسي في الولايات المتحدة. فهل نحسب هذا انضباطا للعاطفة الدينية عند الروس وبالتالي اتساع الضجوة بينهم وبين معاداة السامية؟ قد يبدو هذا حقيقيا من الوهلة الأولى، ولكن التمحيص في راهن الأمور، والإطّلال على المستقبل انطلاقا مما يجري في الحاضر قد يرسم لنا صورة مغايرة. إذ يرى المؤلف أنّ الروس يتمتعون بقابلية التعبئة السريعة حينما يتوجب الأمر، وما عملية المشاركة في التوبة الجماعية لقتل القيصر الروسي الأخير نيقولا الثاني سوى ملمح من ملامح الطفرة الإيمانية لدى الشعب الروسي في لحظات تاريخية بعينها.

علاوة على ذلك، وكما يلاحظ الباحث، يمكن للرأي العام الروسي أن يغير اتجاهه بسرعة فائقة، وهذا يتعلق أيضا بمسألة معاداة السامية التي تعمل في خدمتها اليوم سوق للإيديولوجيات والخرافة تملأ الفضاء المعلوماتي الروسي لم يكن لها وجود في السابق. ويؤكد شنيرلمان أنّه إذا ظلت الكنيسة على إصرارها تدريس التاريخ المقدس في المدارس الروسية (وقد قرّر هذا الاتجاه في إطار الإصلاحات على التعليم السوفيتي) فعلينا أن نتوقع تجدد معاداة السامية مصحوبة بعواقب لا يمكن التنبؤ بها.

جانب آخر من الخطورة يكمن في إبدال الشعار القديم القائل بأنّ الاتحاد السوفيتي هو الضامن للسلم وزعيم التطور التدريجي، إبداله بالصيغة الجديدة التي ترفع شعار روسيا باعتبارها آخر معقل للمسيحية والمعرّقة لظهور المسيح الدجال. وبتكريس هذه الشعارات ستصبح روسيا هدفا رئيسيا وطبيعيًا للقوى الشيطانية، ما يعزز من احتمالية خلق أرض خصبة للمشاعر الجنونية التي تجتاح الوطنيين المتطرفين وتمدهم بصور مختلفة عن رُهاب الأجانب، بما في ذلك مناهضة السامية والغرب.

الكتاب: قبيلة دان.. الإيمان بالآخرة ومعاداة السامية في روسيا الحديثة.
المؤلف: فيكتور شنيرلمان.
الناشر: دار نشر: بي بي إي/ موسكو ٢٠١٧.
اللغة: الروسية.
عدد الصفحات: ١١٧ صفحة.

*أكاديمية ومستعربة روسية



شبابهم السوفيتي حملة مكافحة الصهيونية العالمية، ولا يزال الأمر يؤثر عليهم ويساهم في تأطير نظرتهم بشكل حاسم. أمّا أنصار الاتجاه الثاني فيمثلته الشباب التائقون لتلمس العظمة الروسية ورؤيتها وهي تغطي العالم بجناحيها الروحي والعسكري. وفي هذه البيئة الاجتماعية يطفو النقاش حول إمكانية نشوب حرب عالمية ثالثة. يقول الكاتب: «تميط مثل هذه الحجج المحرمات عن نشوب حرب نووية، فيذهب الجمهور إلى التعود على الفكرة وتقبل مثل هذه الحرب التي لا يبدو أن ثمة مفر منها. ولسنا بحاجة بعدئذ إلى شرح مدى الخطورة التي يكتنفها هذا المنطق» (ص ٤٨٥).

وفي سياق حديثه عن الاسخاتولوجية الروسية (الاسخاتولوجية هي علم الأخرويات) يقارن المؤلف بينها وبين قريبتها الأمريكية. ويعطي أمثلة عن الحالة الاسخاتولوجية الروسية ومنها حينما عاش رهط من المؤمنين والنسّاك الروس حالة انتظار وترقب لاقترب موعد المسيح الدجال وتدبروا طريقهم للهروب من العالم والانزواء في أديرة منعزلة من أشهرها ما هو موجود في مدينة بينزا الروسية. بينما لا نعثر (في الحالة الروسية) على شيء يشبه الانتحار الجماعي الذي شاع في أمريكا مثل حادثة جونز تاون التي راح ضحيتها ألف مسيحي. كما خلت الساحة الروسية من استخدام الخطاب الاسخاتولوجي في وسائل الإعلام والإنتاج السينمائي مثلما هو الحال في الولايات المتحدة في السبعينيات والثمانينيات من القرن الماضي. وبحسب الباحث تقودنا هذه المقاربة إلى التيقن من واقعية السلوك الإيماني عند غالبية الأرثوذكس الروس.

ويشير المؤلف إلى أنه ووفقا لاستطلاعات الرأي العام بين أعوام ١٩٨٩-٢٠١٠ فقد ارتفع عدد المؤمنين

الخروج من السياق الروسي في بحثه لظاهرة معاداة السامية إلى المحيط العالمي وما يتبلور منها في السلوك الاجتماعي بل وحتى في السياسة العامة. وفي هذا الصدد نواجه مع الكاتب عدة أسئلة محورية منها: كيف يفهم الناس يوم الدينونة وما هي الصورة التي يحملونها عنه؟ لماذا تفضي بعض مسابقات تطور العالم الحديث إلى مخاوف أخروية؟ لماذا يتم إحياء الأرثوذكسية في روسيا جنبا إلى جنب مع القلق بقرب نهاية العالم؟ هل صحيح أن اقتراب نهاية العالم مقرون بمعاداة السامية؟

أفرد الكاتب جزءا كبيرا من كتابه لما يظنه واحدا من المؤشرات الرئيسية لفكرة نهاية العالم عند الروس وهي العولة وآثارها على العقول والأفكار. يقول الباحث: «إنهم (أي الروس المؤمنين بعلامات يوم الميعاد) يخشون من العولة التي تعدّ بإلغاء الدول القومية وسيطرة الحكومة العالمية على الثقافات العرقية وبالتالي السيطرة المطلقة على الفرد. أما الأسوأ عندهم فهو خلق ديانة واحدة واقتلاع ما عداها، وقبلها كلها الديانة المسيحية. وهم مقتنعون أنّ العالم الحديث يتجه إلى ذلك بوتيرة متسارعة» (ص ٥٨٩).

في أحد فصول الكتاب يحلل الباحث دور الإيمان بنهاية العالم في ظهور الهجمات العدوانية في روسيا التي اشترك في بعضها رجال الدين أنفسهم والتي زادت من وتيرتها بشكل كبير بدءا من عام ٢٠١٢ فشملت هجمات على المتاحف والمعارض الفنية والمهرجانات الموسيقية والعروض المسرحية والأفلام. ويشدد الباحث على أنّ هذا النشاط يتلقى في بعض الأحيان الدعم من الكنيسة الأرثوذكسية الروسية.

وفي هذا السياق يُقبِلُ الكاتب على مسألة المسيحية السياسية ويقسمها إلى قسمين: علم الأخرويات المعادي للسامية وعلم الأخرويات الإمبريالي. وبرغم الأرضية المشتركة بين الاثنين إلا أنّ أنصار الاتجاه الأول ما زالوا ينظرون إلى الميتافيزيقية اليهودية كعدو من أعدائهم، في حين أنّ الاتجاه الثاني يعطي أهمية أكبر لفكرة الإمبراطورية وتحقيق مهام القابض. بالإضافة إلى ذلك لا ترى المقاربتان بديلا لما يحدث في العالم إلا العولة الأرثوذكسية وذلك بهدف إقرار النظام الروسي، السياسي والروحي، بصفته النظام الأصح والأبقى للعالمين. يقول في ذلك: «لم تعد روسيا ذلك المدافع عن المظلومين في العالم وإنما دولة افتراضية تسعى إلى فرض قواعدها الخاصة على بقية العالم» (ص ٤٨٤-٤٨٥). وبحسب الإحصاءات التي أجراها الباحث نجد أنّ أنصار الرأي الأول يتواجدون بين كبار السن الذين شهدوا في زمن



قبيلة دان.. الإيمان بالآخرة ومعاداة السامية في روسيا الحديثة لفكتور شنيرلمان

فيكتوريا زاريتوفسكايا *

على عكس التوقعات في الحقبة القربية الماضية حول حلول السلم العالمي، والأحلام الوردية التي خامرت الأذهان حول سيادة روح التفاهم وتمكين ثقافة الحوار لحل القضايا البشرية، ها هي الإنسانية تدخل القرن الحادي والعشرين بعدد أكبر من بيارق الحرب، وبشعارات للكرهية أشد وأعتى. وها هي الحدود بين الدول تضطرب وتتحصن بالأسوار الشائكة والألغام وتتمترس خلف الصواريخ الموجهة. وبعد انتهاء الحرب الباردة، وكضربة قدر مجهولة، يستبدل الإنسان حلمه بنزع السلاح إلى النزوع أكثر إليه وبضبط الجيوش ولجم القوة العسكرية إلى استحداث قدرات جديدة منها. وها نحن نشهد تراجعاً مخيفاً في ثقافة التسامح والانفتاح بين الدول، وها نحن نفتح على الانغلاق القومي ونتسع في تضيق الحريات ونتقدم في تراجع الديمقراطية ونميل ميلاً خطيراً إلى ثقافة المجتمعات المنغلقة.

الحادث لأنصار المليارية (وهي مجتمع في المسيحية يؤمن إيماناً قاطعاً بنهاية العالم خلال ألف سنة أو أكثر بقليل) سوغ لهم الاعتقاد بأن ما جرى ليس مجرد اغتيال سياسي وإنما عملية لتصفية القابض من أجل تمهيد الطريق أمام المسيح الدجال. وبهذا اشتبكت الأحداث السياسية بنسيج العقيدة الدينية والتصور الأخرى، ومنه ولدت معاداة السامية المستمرة في المجتمع الروسي حتى يوم الناس هذا. لا يقتصر المؤلف على وضع تحليلات نصية لمسألة معاداة السامية في روسيا، ولا يقتضي بتقصي المواقف السلبية تجاه اليهود فيها، إذ تركز مهمته على النظر إلى معاداة السامية من منظور اجتماعي شامل وتقييم الخطر الحقيقي لها في رهن يومنا.

يعرض شنيرلمان في كتابه كيفية تغير فحوى الأفكار عبر الزمن ضارباً لذلك عدة أمثلة من بينها أسطورة الخرز التي ظهرت في روسيا وتكيفت مع مصالح وغايات اجتماعية معينة وارتبطت بجماعات دينية بذاتها. كما يصور الباحث كيفية تحول الأفكار وفقاً للتطورات السياسية الجارية، وكيف يتم التلاعب بصور الأبطال التاريخيين، وقياساً لذلك فإن بعض النبوءات الواردة في سفر الرؤيا تحتمل تفسيرات مختلفة ولا تقتصر على قضية معاداة السامية، بيد أن ما يحدث هو أن المتلقي يتعامل مع هذا السفر من الإنجيل باعتباره إجازة لمعاداة السامية وذلك من منطلق إيديولوجي متطرف خاص لا علاقة له بالدين.

إذن فالمؤلف، في مدخله لتحليل بعض الأفكار والتصورات المعادية للسامية، يربط ذلك بالأفكار والتصورات المتعلقة بيوم الميعاد. كما يحلو له أحياناً

الأرثوذكس الروس على أساس عقائدي، مستوحى من تصور عن يوم القيامة يقول بأن المسيح الدجال سيخرج من مفرزة يهودية تنشط في مختلف أوجه الحياة، وما مؤشرات هذا النشاط اليوم سوى علامة دامغة على اقتراب نهاية العالم.

لقد اكتسبت قصة المسيح الدجال شعبيتها في روسيا في الفترة التي بدأ الاهتمام بها في الغرب بذوي ويتلاشى. لم يُذكر المُركب اليهودي حتى نهاية القرن التاسع عشر من قبل المؤمنين واللاهوتيين الأرثوذكس، ولم يحتل اليهود أي مكانة هامة في نبوءات نهاية العالم. ولكن كل شيء تغير وبشكل قاطع في أوائل القرن العشرين، وذلك بالتوازي مع تفاقم الوضع السياسي والاجتماعي في البلاد ومشاركة اليهود بشكل ملحوظ في الأحداث الثورية. مع ذلك، وكما يلاحظ المؤلف، فقد كانت مشاركة اليهود في تلك الأحداث المفصلة في التاريخ الروسي «طبيعية تماماً بالنسبة لأولئك الذين تعرضوا للتمييز في روسيا القيصرية على مدى عقود» (ص ٥٨٢).

وفي هذا السياق تجدر الإشارة إلى أن مدخل التصور الأرثوذكسي لنهاية العالم يكمن في مفهوم «القابض» Katechon (أو الماسك بموازين الكون). وبدءاً من القرن التاسع عشر أوكل الكهنة الروس مهمة القابض هذه للإمبراطور وأمنوه مقاليد حفظ النظام والسلم المجتمعي والحيلولة دون ظهور المسيح الدجال. وقد بلغ قلق الكنيسة أشده عند المقتلة الوحشية للإمبراطور نيقولا الثاني وعائلته بيد السلطة البولشفية، وكان من بين المشاركين في عمليات الإعدام أشخاص من أصول يهودية. وقد سوغ هذا

في هذه الظروف تبدو الحاجة ملحة إلى دراسة خصائص رُهاب الأجنبي كأحد التهديدات التي يواجهها التعايش السلمي في المجتمع الواحد أو بين المجتمعات المختلفة: فما هو محتوى هذا الرُهاب؟ هل يقتصر على أمزجة عابرة في الحياة اليومية ويندرج ضمن كليشات لحظية تظهر وتختفي أو أنه يشدنا ويشبكنا بأفكار معقدة ومتأصلة في الوعي؟ في أي تربة اجتماعية تنمو شعبيته وما هي البيئة التي يتعمق فيها؟ ما الذي يغذي كراهية الأجنبي اليوم وكيف تتعمق في الوعي والوجدان الجمعيين؟

إن معاداة السامية اليوم هي نوع من كراهية الأجنبي الأكثر انتشاراً في روسيا. وقد دُرست أسبابها وأنواعها وتاريخها على نحو غير قليل، وتم استقصاء جذورها وأسبابها ضمن مختلف السياقات التاريخية والثقافية. وربما أكثر ما يميز هذه الظاهرة في المجتمع الروسي مقدرتها غير العادية على الصمود والبقاء حية عبر الزمن وتكيفها مع الظروف المختلفة والأوضاع المتغيرة، الأمر الذي يثير لدى المتابع أسئلة ساخنة حول هذه القضية. واستبقاً لأي تأويل تقليدي، فإن هذه المسألة لا يمكن تناولها (كما جرت العادة لدى الباحثين) من منطلق عنصري أو سياسي أو اجتماعي/اقتصادي فقط والقفز على الدوافع الدينية أو دحرها إلى الخلف باعتبارها دوافع تعود إلى القرون الوسطى ولا مسوغ لها في عالمنا المعاصر والمتطور.

بالنسبة إلى الكتاب الذي بين أيدينا لمؤلفه فيكتور شنيرلمان، فهو يشير، بلا مواربة، إلى صحوة دينية تعيشها روسيا المعاصرة وإلى عملية إحياء مناخات دينية لمعاداة السامية، هذه المعاداة التي تقوم عند